الأدب الشعبي في وادي الفرات وحاضرته دير الزور

محمد صالح بريندي

١ ـ المقدمة :

ان دراسة ادب الامة في اي عصر من العصور عامل هام في دراسة تاريخها لان الآداب تعبر عن حضارة الامة وطباعها وعاداتها ، والادب الشعبي في وادي الفرات وحاضرته دير الزور يمثل تاريخا هاما من حياة البادية العربية وعشائرها واوضاعها الاجتماعية والبشرية والجغرافية ، فالآداب في الامم مرآة لحياتها وتاريخها ، وقد اخذ العرب الاقدمون عن اهل البادية دراساتهم التاريخية واللغوية ـ ولكن الآن للاسف ـ كما يقول الاستاذ وصفي زكريا في كتابه (عشائر الشام) «لم تعد العربية ترى بين ابنائها الحاضرين امثال ابي عبيدة والاصمعي وخلف الاحمر وابي عمرو بن العلاء وحماد الرواية والمفضل الضبي وابي زيد الانصاري وغيرهم ممن كانوا في صدر الاسلام يتجشمون مشاق السفر الى البادية ويختلفون الى المضارب ويحادثون البدو ويتتبعون منظوم كلامهم ومنثوره ويلتقطون اخبارهم ووقائعهم ونوادرهم ويدونونها ويؤلفون فيها كتبا ورسائل حفظ الدهر بعضها الى عهدنا ولولاها لضاع كثير من لغات العرب الاقدمين وتاريخهم وقد سبقنا بعض المستشرقين والباحثين الغربيين الى ذلك» .

لقد تذوقت الادب الشعبي منذ صغري وعندما تعرفت بالمطلعين على هذا النوع اتيحت لي فرصة كبيرة لسبر غوره وفهم معانيه والالمام بأهدافه ومراميه وبعد ذلك اتصلت ببعض المعمرين في البادية الذين قد احاطوا بهذا الادب ووقفوا على بعض أحداثه او عاصروها وفسروا معانيه والموا بأخباره ثم تتابعت جولاتي في البادية والقفار ومعالم الصحراء بدوها وحضرها وانا اتلهف للاستزادة من اخبار هذا الادب وتسجيل حوادثه وأنهل من مشاربه وبعدما درست الادب العربي وطالعت دواوين الشعراء وتابعت اخبارهم ووقفت على بعض نواح اخرى من الادب العالمي وفنونه مازال الادب الشعبي في صحرائنا العربية وبوادينا الاصيلة وبخاصة في وادي الفرات يبرز أمامي ويتراءى بمخيلتي وذاكرتي معبرا عن البيئة العربية الشعبية التي نشأ بها ومسجلا تاريخا في فنه الذي سلك مسلكا خاصا وانتحى ناحية فريدة من نوعها هي العاطفة التي طبعتها البادية والمتجلية بالشجاعة والكرم والمروءة وتلك هي الصفات التي أورثها الاجداد للابناء وقد برز ذلك الفن بالخيمة في الصحراء وما تشتمل عليه من حسن الضيافة وكرم الوفادة والقرى وتقديم القهوة العربية وغير ذلك مما تقتضيه عادات البادية وما يمليه واجب العربي في صحرائه بقلبه الكبير ونفسه الشماء .

٢ ـ فنون الادب الشعبي :

هذا الادب له جرس موسيقي كالشعر العربي وله ضروب وانواع وكل منها له رنة موسيقية

خاصة فمنه العتابا ومنه النايل ومنه السويحلي وهناك المولية . ونجد فيه الشعر المتعددالفقرات المتنوع الابيات . كما نجد فيه الامثال المستقاة من التجارب الحكيمة التي اثرت عن الذي خبروا الدهر وبلوا مضاءه وعضهم بنابه واكتسبوا من تجاربهم اقوالا وحكمة صاغوها امثالا لمن بعدهم ولكني سأقتصر الآن في هذه المحاضرة عن اشهر فن من فنونه وهو العتابا .

تتألف هذه من اربع فقرات او مصاريع موزونة تلتزم الثلاث الاولى منها بالقافية وتكون الرابعة حرة في الوزن .

ونجد في العتابا الرثاء والحماسة او مايسمى (الفراقيات) ونجد فيها الغزل او ما يسمى (الهواديات) كما نجد فيها شكوى الزمان والمديح والوصف والهجاء والرسائل والفخر وغير ذلك مما نجده في الشعر العربي قديمه وحديثه .

ولكن المشهور منها هو ابيات الرثاء والحماسة لانها تعبر عن عاطفة صادقة حزينة وكما قيل (ما خرج من قلب حل في قلب) فهي تبكي او تندب بطلا في قومه ذا شأن في عشيرته وترثي شهما ذا مروءة وتظهر النفوس الكبيرة ذات العزة الانفة ، او يتشكو الزمان واحداثه وصروفه ، فهذا الاعرابي يبكي احبابه الذين ارتحلوا وماتوا بقوله :

ادور بحيهم ما دار بـل هـام
ومن غبتم دليـل مشاي بالهم
نبت عرج البياض وصار بالهام
يا شوفي قـل وجدامي تعـاب

فيقول : انـي اهيم بديار الاحبـة كالجمل الهائم على وجهه لا يعرف مأواه ومنذ غيابهم اصبحت مغموما مهموما حتى ظهر الشيب من الحزن في هامتي (اي راسي) ولهذا ضعف بصري وكلت قدماي وتعبتا ، ويلاحظ ان البيت يحتوي على ثلاث فقرات تنتهي كل منها بكلمة ذات سجع واحد ، ولكن معناها يختلف عن الاخرى ففي الاولى كلمة (بل هام) اي هام الجمل على وجهه، والثانية (بالهم) اي بالغم والحزن والثالثة (بالهام) اي بهامة الراس ، اما المصراع الرابع فهو حر الفقرة . ويبدو البيت ذا وزن موسيقي فيكاد يكون من البحرالوافر :

هذه العتابا تشبه الرباعيات في الادب العربي او في اللغات الاخرى كالفارسية . فمن الرباعيات للشاعر المرحوم انور العطار :

بالله يـا حادي
عـرج على الوادي

وانشـق مـن الشيـح
عطر الربا الفيح ، بالقلب والروح

ومن رباعيات الخيام المترجمة عن الفارسية:

طفت يوما حـول خزاف لبـق
يصنع الاكواب من طين لـزق

لطمت كفـاه في عنف وخـرق
طينـة فاسترحمتـه وجـلا
قالت ارفق لا تكن فظ الطباع

ثم يطبق الاعرابي يديه أسفـا وحزنا لموت هؤلاء الشجعان الذيـن طويت خيامهم وآلـت الوجاهة بعدهم الى من لا يجارونهم قدرا وكرما وشجاعة ، وهل يستطيع طير العقعق والغـراب ان يقوم مقام النسر والصقر :

بيدي لصفك العشرة ويا حيف
على حنر طواها البين يا حيف
طيور ما بها الصكار يا حيف
غدت بيد العجاعـج والغراب

ويلاحظ ان كلمة (ياحيف) في الفقرة الاولى تعني الاسف ، والكلمة الثانية تعني (اخذ الثأر) والكلمة الثالثة تعني الصقر كناية عن وجيـه القوم وعميدهم .

٣ ـ الصفات العامة التي يتصف بها الادب الشعبي :

١ ـ هذا الادب هو ابن بيئته :

فلن نستطيع فهمه اذا جردناه من بيئته ولغته وصحرائه وقفاره وخيمه وفيافيه .

فالبدوي القديم في الصحراء لا يعرف الا الجمل والكلب والذئب والبوم والغراب . ولذلك يشبه الرجل الجلد الصبور بالجمل . ويشبه احزان قلبه ونيرانها المتأججة لفراق احبته بعواء الذئب . ويرى البوم وغراب البين (وهما رمزا التطير والتشاؤم) لدى اهل البادية قد خيما في الديار بالرزء الجلل والمصاب الفادح . وعندما يحزن للمصيبة ويأرق ولا ينام الليل يشبه نفسه بالضفدع التي تنق في الماء ويسمع صوتها طوال الليل ويطلق كلمة (دلالي) على قلبه ، وكلمة (ناهي) على حبيبه أو حبيبته أو على العاذل اللائم . وكلمة (جيران الدليل) على الرئتين المجاورتين للقلب فيقول :

الساع الفارك احبابه كطا طيب
زعل وجروح دلالي كطا طيب

الى ما اسلاك لو يسلى الكطا
طيب المنام ويترك الغريب العواه

فيقول : اخبروني فورا هل من فارق احبابه يشفى ويبرأ واني كظيم حزين وجروح قلبي منفطرة كأنها قطب الجراح المخاطة ، ثم يناجي عزيزه الذي فقده قائلا : لن انساك حتى ولو نسي القطا طيب منامه وترك الذئب عواءه .

ب ـ اذا كانت هذه العتابا وليدة البيئة التي نشأت بها فقد اخذت بالتطير والتشاؤم ، بل بالغت فيه ولكنها كانت صادقة العاطفة قوية الجرس شديدة الايقاع ، ولعل ذلك التشاؤم والتطير قد سطوا على قوة العاطفة فأججا اوارها والهبا جذوتها فاستمع الى القائل برثاء احبته :

سيوف الهند بالضامر حزينة
وكطع الوصل من غتم حزينة

غرفت الدمع من عبرة حزينة
ومـا لومة على فـرك الحباب

وتكني العتابا قروم القوم وشجعانهم بسيوف الهند أو سيوف الروم .

واستمع ايضا الى القائل الذي لا يكتفي بنار مصيبته التي تؤجج قلبه وتفري فؤاده . بل يريد من الحزن المثقل بالهموم ان يرسل اليه احزانه واشجانه ويحمله من الغم ما يشاء لانه غرق في بحر من الآلام والاحزان واصبح كما يقول المتنبي :

فصرت اذا اصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

حيث يقول :

يا عاجز عن همومك دزها لي
علاوة فـوك حملي دزها لـي

أيـا وكاد نـاري دزها لـي
وهايلها على فـراك الحبـاب

ج ـ ان عاطفة الحزن الصادقة هذه تدفع القلب الملتاع والنفس الحزينة الى بكاء الاحبة بالمزيد من الابيات لعلها تجد في ذلك فرحة لكربها وعبرة تخفف بها الاحزان الجائشة في القلب المجروح ، فهذا البدوي يندب فقيده المتوفى بعاطفة قوية صادقة حيث يقول :

مثل فـرك الوحش بالبرهمل
وعليهم يادموع العين همـل

احمل ياحسين الحمد هم ال
بتل العيس نامـوا للحبـاب

فيقول : اني تائه سادر من الحزن كالوحش الهائم على وجهه ، فاذرفي يا دموع عيني على الاحبة واظن ياحسين الحمد ان الذين ارتحلوا قد دفنوا تل العيس الى يوم القيامة .

ثم يتابع قوله :

ظعنهم ياحسين الحمد ماشي
بليل ودمع عيني ظل ماشي
وتاشوف ظعن الخل ماشي
عكب ما هم صباحي والميسا

ان قافلتهم قد ارتحلت بليل أليل ودمع عيني ظل منسكبا عليهم ، ولأرى قوافل الاحبة قد ارتحلت بعدما كانوا احبة وندماء لي صباح مساء .

ثم يقول ايضا :

بتل العيس ناموا لي مداريع
وعليهم قامت العذرا مداريع

سيوف الروم بالساكة مداريع
هل اليسوكون الثكل واضاعفا

اي بموضع تل العيس قد دفن احباؤه الاسود وعلى هؤلاء شقت الفتاة العذراء ثوبها حزنا وهم شجعان يحمون الظعن ونحن لا شيء تجاههم .

د ـ لما كان هذا الادب وليد بيئته وباديته فقد اخذ بالكلمات والتعابير الدارجة في زمنه سواء اكانت عربية أم اعجمية ، فهناك الفاظ وردت فيه ربما كانت بدوية أو فارسية أو تركية فكلمة (الكمان) بمعنى الامثال والاقران واللذات، ومفلوثة بمعنى مكلوبة والقطرفان والشرك بمعنى الاخ من الرضاعة ودوالشاه اي حليب الشاه .

فهذا الشخص الذي فرح بلقاء احبائه ولكنه لم يجد اقرانه الذين فرقهم الموت ووجد نفسه غارقة بالهموم وقلبه سادرا بالافكار فلا يستطيع اي طبيب ان يعيد اليه صفوه فيقول :

فرحت بلمة احبابي والكمان
ادور بحر حسباتي والق من

طبيب الهند لا ابراني ولقمان
ولا سليمان يوصف لي دوا

وهنا (الكمان) بمعنى الاقران واللدات والاصحاب ولم اعثر لها على اصل في اللغة العربية اي اني فرحت بجمع الشمل بالاحباب والانداد والكني افكر في لداتي فلا اجد احدا . ولم يستطع طبيب الهند ان يشفيني ولا لقمان الحكيم ولا النبي سليمان ان يوصف لي دواء شافيا .

ر ـ هذا الادب يختلف من بيئة ومن قبيلة الى اخرى حسب اغراقها في البداوة او قربها من المدينة ، فعشائر شمر وغزة وطيء هم بداة ، وكان ادبهم الشعبي مقتصرا على الحداء ثم اخذوا بالعتابا المذكورة ، فالمروي عنهم يتصف بطابع شدة البداوة سواء اكان ذلك بالعادات أم بالالفاظ . فيقول هذا البدوي المصاب بجرح قاتل والهائم والواهم من المصاب :

همت واهميت واهتميت واهميت
وبليت المجادم دمع واهميت

حشف جرحي الحكيم وقال وهمت
ما اظن يطيب ممكون الصواب

فهذه الالفاظ بدوية تشبه ما جاء في الادب الجاهلي القديم الذي رأوا فيه الفاظا قاسية عرفوا عنها وتركوها وهنا نتذكر قول الاعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني
شاو مشل شلول شلشل شول

وعشائر الجبور تقطن ضفاف نهر الخابور وروافده ولا سيما نهر جغجغ وزركان وطابان وهم نصف بداة تقريبا ، ومع انهم سجلوا بالادب الشعبي او العتابا سبقا ملحوظا . واهتماما خاصا الا أن المروي عنهم كان يتصف بطابع بيئتهم وعاداتهم .

فهذا الاعرابي الذي تغرب عن مأواه فلما عاد الى الحي وجد خيام النزل غارقة في النيران تلتهمها من كل جانب فلم يعرف مأواه من السنة اللهيب وسمع الصياح والعويل من جمع

الانحاء فشبه نفسه بالذئب الذي بحث عن صغاره الذين فقدهم فلم يجدهم فيقول :

لبس الجلد كم الجسد وعواه
وموشني حريج النار وعواه

مفاصل ذيب وسط الحشا وعواه
مشيه جراه دور مالكا

اما عشائر البكارة والعكيدات والبوسراية فهم يقطنون ضفتي نهر الفرات (الجزيرة والشامية) وهم يقتربون من الحضر تقريبا لذلك اتخذ ادبهم الشعبي طابعا يكاد يقترب من ادب سكان المدن بحكم امتزاجهم معهم واقترابهم منهم وصلاتهم الاجتماعية والجغرافية .

فقد روي انه في القديم حدثت فتنة بين افراد عشيرة العكيدات فتفرق امرهم شيعا وخشي من الفتنة ان تدب في صفوفهم فأرسل اليهم احد وجهائهم ويدعى (لطيف) شخصا يبلغهم هذين البيتين :

عفا المصري نواعيره محدهن
غزير الدمع من عيني فحدهن

لطيف يقول يا عمومه ما احدهن
يا ولو دبا طلن الموزمة

فالمصري هو دولاب او ناعورة مياه على الخابور كان لها صوت شجي بضاحية البصيرة قديما وكانت مياهها تسقي اراضي واسعة وتجاورها ناعورة (راشدة) وغيرها ، وقد انقرضت واأسفاه تلك النواعير التي كانت تضاهي نواعير حماة في جمالها وبهائها ، كما انقرضت ناعورة (محشوش) على الخابور في الحسكة . وتعبير (يا ولود باطلين الموزمة) مناشدة لنخوتهم وشيمهم ومروءتهم وغيرتهم على مصلحتهم ثم يتابع قوله :

عفا المصري نواعيره سواراي
غزير الدمع من عيني سواراي

لطيف يكول يا عمومة سوواراي
يا ولوا وباطلن الموزمة

فكأنه يريد ان يعبر بما ناشد به العربي القديم قومه قائلا :

فاشفوا غليلي براي منكم حصد
يصبح فؤادي له ريان قد نقعا

و - وفي الغزل حظي الادب الشعبي بقسط حسن من الوصف والرقة في وصف محاسن المرأة وجمالها فقد كنيت به (ام كذلة) لانها تضع الحلية الذهبية المسماة بالكذلة في نهاية جدائل شعرها التي تنوس على ظهرها وقد انقرض ذلك الان ، وشبهت بالريم أو الغزال فهذا البدوي يعتز بصحرائه العربية ويرى غبار قطيع الغنم فيها كالمسك والعنبر ، وينظر الى السماء المطرة وزوجه الجميلة (ثريا) بجانبه فلا يجد جمالا اسمى من ذلك في اريج البيداء التي يفضلها على المدن التي يدعوها (بالقرى الموخمة) حيث يقول :

هلا بثري والدنيا مسجبة
عبل يا ريح ابو كذلة مسبح به

عجاج الظعن عنبر والمشيخ به
أخير من الكرايا الموخمة

وهنا صورة اخرى من الغزل ولكن القائل هي امرأة والمشهد يتلخص في ان حبيبها جاء الى خيمتها ومد يده وتناول زوج الهباري (غطاء الرأس) الذي كانت ترتديه ليعلمها بقدومه وقد شغل ابوها ببعض اموره فتقول :

شكف جوز الهباري والتهن بهن
ونيرانه بكلبي التهبهن

عجي دونك خدودي والتهي بهن
صبر تاخل كطاطب الثياب

واطلقت على حبيبها كلمة (عجي) هنا وهو الولد تحببا لا تصغرا .

وقديما كتبت ولادة بنت المستكفي الى حبيبها ابن زيدون في الادب الاندلسي تقول له :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي
فاني رأيت الليل اكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا
وبالليل ما ادجى وبالنجم لم يسر

لقد اهتم سكان البادية ووادي الفرات عامة بهذا الادب لانه يمثل نوازع نفوسهم ويعبر عن مكنونات قلوبهم سواء اكانوا بدوا ام حضرا او ممن يعملون في الارض القرويون او (الشوايا) واسماهم ياقوت في معجم البلدان (النبط او النبطيين) حيث قال : « واما النبطي فكل من لم يكن راعيا او جنديا عند العرب من ساكني الارض » .

٤ – الادب الشعبي في حاضرة الفرات : دير الزور :

ان مدينة الفرات بتاريخها الحافل الطويل هي عروس الصحراء وحاضرة البادية ، ولما كان سكانها هم عرب خلص بأنسابهم الاصلية قد نزحوا قديما من البادية الى المدينة حيث نجد بينهم اناسا من عشائر عنزة وشمر وطيىء والبكارة والعكيدات وغيرها ، فطباعهم وعاداتهم هي طباع البادية التي صقلتها حضارة المدينة ، فالدير هي المرجع الرئيسي للبادية بحكم الواقع والوضع الاقتصادي والعمراني وامتزاج او تقارب السكان ومعاملاتهم مع بعضهم بعضا ، ولهذا فقد احتضنت هذا الادب وكان بها بارزا قد سجل حوادث ومآثر وامثالا .

– كان الديريون قديما في العصر التركي الاول يذهبون الى مدن حوران والاردن وبعض المدن السورية الاخرى يعملون بالتجارة البسيطة على ظهور الحمير والبغال بصورة قوافل ، وعند عودة احداها اصيب احد الاشخاص بمرض البرداء (الملاريا) فاقعده ذلك عن مواصلة سفره الى الدير وحين راى الركب قد تركه آيبا الى الدير قال :

حفهم شال صوب الدير مملي
نحلت ولو وردت البير ما ادلي

يا طارش وانو وصلت ابوي مملي
السلام وحبيب للمشفج حتاب

وعندما قطعت القافلة شوطا كبيرا في سفرها ورأى هذا المريض المشرف على الموت نفسه وحيدا في البيداء قال :

ناشدت الغراب وقال ما هم
رحيل وشايلين العصر ما هم

وخلوني وراهم شبه ما هوم
الضواري لولعن بارض الخلا

– كان الاتراك المسيطرون على البلاد سابقا يحاولون تأمين سلامة قوافل الحجيج الذاهبة كل عام من السطو عليها من قبل البدو القاطنين في الصحراء وايجاد ادلاء لسيرها والارشاد الى آبار المياه في الصحراء ، فكانوا يأخذون اشخاصا من البدو ذوي قوة وخبرة لتلك الغاية ، ويظهر ان احدى القوافل قد اضلت السير في الصحراء فقال احدهم منبها لى ذلك :

أدور لهم بكل الحي ما جاد
غزير الدمع عا الوجنات ماجد

دليل رحابكم يا نون ماجد
الدبا دب واخطوا الكور بسراب

فيعجب دليل القافلة البدوي وعميدها من ذلك ويجيبه قائلا : كيف تضل القافلة طريقها وهو موجود بها يرشدهم لامكنة المياه والاستراحة فيقول :

اني لاحت عن جولي وانابيه
غزير الدمع عا الوجنة وانابيه

وكيف يتيه ركب لكم وانا بيه
خليلك من يوردكم مياه

– وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى

١٩١٤ – ١٩١٨ اخذ الاتراك الحاكمون يجندون ابناء البلاد العربية للحرب معهم بحجة الجهاد في سبيل الله ، وها هو احد ابناء الدير وكان يحارب في سواحل البلقان مع الجيش العثماني يكتب الى صديقه (صالح) بالدير قائلا :

يا حايل دونها اللولفي مداريع
كفر وطوابهم ترمي المداريع

يا صالح لو تشوفون المداريع
بليل وتيهت رشد الصحاب

وها هو مجند آخر يكتب الى عمه (محمد) من جبل (بيلان) :

جبل بيلان شيب غار بي
بعد ما كان ريش الفار بي

زماني يا محمد غر بي
وساكني على مر وجفا

– وقال احدهم وكان معرفاقه بنزهة جميلة في موضع على الجبهة اليسرى من الفرات بالدير يدعى (الردة) حين شاهد الحسان يملأن جرارهن من النهر :

ريام الدير بالردة ما احسن
جابر حطوا بدلا لي محنة

يا ناهي جعدا بو كذلة ما أحسن
من امه تكول شرطان الذهاب

– وزرت احد الاشخاص بالدير في مرضه وبدا كأنه يحتضر وقد شعر بنهاية حياته وارتقاب ايامه الاخيرة فبكى وانشد :

جد امي والعزائم ناحلية
وكل من شاف حالي ناح لي

يا كلبي كول ضر الناحلية
مكدر طول عمره ما صفى

– ورايت احد الشيوخ القدامى عندماغادر منزله بالدير العتيق بعد هدمه قد بكى لانه فقد به البيت الذي رأى به عزه وعز قومه وطفولته وصباه وبدا عليه التأثر في قسمات وجهه المكدودة وفي لونه وانشد متمثلا يعبر عما في دفين قلبه من الالام والاحزان :

يا دار العز عنك ما كفينا
حفظنا العرض من حكي الكفينا

هات الياكفون بما كفينا
ونشالش تايجون أهل الطلاب

– والواقع ان المسؤولين في تلك الاوقات قد اخطأوا عندما قرروا هدم مباني الدير العتيق فاذا علمنا ان بلدية (روما) بايطاليا قد انفقت (٢٠) عشرين الف دولار للمحافظة على عامود دائري واحد اكتشف في حي قديم من احياء المدينة وقد رممته واحاطته بالحدائق وعينت له حارسا واصدرت النشرات والصور الملونة عن تاريخه والحقبة التي يمثلها فكان للاولى بقاء قسم من تلك المباني التي كانت تقع على رابية عالية تسمى (السدة) وبجوارها الجامع الكبير الذي هو اقدم جامع في تاريخ الدير وجرى تسويرها لاصبحت آثارا قديمة كالقلعة وربما وجدت الاجيال القادمة بها مناظر قديمة شيقة وممتعة لان جميع شعوب العالم متفقة على ان الآثار ثروة قومية عظيمة فكثير من الاعمال استهجنها البعض في البدء ولكنها أصبحت بعد ذلك حضارة وآثار خالدين . فبرج (ايفل) في باريس عندما شيد في القرن الماضي رآه الادباء والفلاسفة والمفكرون الفرنسيون كالمدخنة السوداء ، التي قيمت بجوار قوس النصر الاثري ولكنه الان يمثل حضارة سامية رائعة من الفنون الفرنسية في العاصمة .

ومباني الدير العتيق كانت ذات مساحة قليلة بطولها وعرضها على الفرات وكان بالاستطاعة الابقاء عليها لولا أن الكثيرين من اصحابها عمدوا الى هدمها وبناء منازل حديثة او السكنى في مناطق اخرى وكان الاولى ان يبقى الجامع القديم فوق التل بجوار بعض الابنية وهذا الجامع شهد

اجتماعات الديريين الاوائل وعاداتهم العشائرية وافراحهم واتراحهم وكانت الجموع الغفيرة تنطلق منه بالمناسبات القبلية والاقليمية كما جرى في صراعهم مع ظلم بعض ولاة الاتراك السابقين ، وفي مقارعة المحتلين الانكليز والفرنسيين للمدينة. وبالاستطاعة أن يقام مرصد او غيره فوق تلك الرابية العالية بجوار الجامع وفي بعض الابنية القديمة لو قدر لها البقاء بعد أن تسور وتشجر وتنشأ حولها الحدائق بجوار الفرات الخالد ، وكذلك قد ازيلت النواعير (الدواليب) المقامة على نهر الخابور كما ذكرت ذلك آنفا والى ذلك يشير شاعر الفرات المرحوم محمد الفراتي قائلا:

مررت على الدير العتيق فراعني
به زجل الاحجار تحت المعاول

تضج وتدعو والخراب ينوشها
بناة العلى من تغلب ابنة وائل

وما من فتى حر يجيب نداءها
فيحمي تراث الاكرمين الاوائل

أتتدفها شلت يمينك خلها
لمعتبر أو زائر أو متسائل

منازل قوم حدثتنا حدثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل

وتحتدم ثورة الشاعر مدافعا عن هذه الاثار حين يقول :

طمست آثار اسلافي بلا سبب
فالله يطمس منك الروح والجسدا

هدمت منها قصورا جد عامرة
للفخر شيدت ولم ترهب بها احدا

تشكو الى الله في المحراب منهدما
ارواح من فيه من آبائنا سجدا

ان الادب الشعبي في ربوع الفرات وفي حاضرته الدير يعبر عن تاريخ هذه المنطقة وعراقتها في البداوة وطباعها وعاداتها وعواطفها وعن الحوادث التي مرت بها ويتغنى بافراحها ويتألم لاتراحها ويمثل التراث العربي التليد والبادية العربية بصفاتها من الرجولة والشجاعة والكرم والمروءة والانساب فقد ورد به :

عرب وليدك عربه
والنار من مجباسها
العز بوروك النسأ
اللي عريب نساسها

وتعبير (عرب وليدك) أي فصح ابنك وعوده الفصاحة والرجولة فالعود يعرف نوع حطبه من احتراق ناره ، والفخر والعز يأتياه من نسل النساء اللواتي لهن سبق في النسب والفصاحة والعروبة فيقول المتنبي :

نحن أبناء يعرب أعرب الناس لسانا وانضر الناس عودا .

ونجد في هذا الادب الحكم العربية من تجارب شيوخ البادية الذين خبروا الدهر وبلوا مضاءه وعجموا عوده ، فيعبر هذا البدوي المسن الذي جاوز المئة من عمره عن تجاربه في الحياة قائلا :

ما بمثلي جب من الطل والندى
ولا يستوي هرج بليا افعال

ولا ضحك الا والبكا مردفيله
ولا حدر الا وراه زلال

يا جاعدن بالفي فين زاح ظلك
يا جاعدن بالشمس جاك ظلال

انا مديت للدنيا حبال تجرها
هناك جرتني الدنيا بغير حبال

يا ناكة الهلباج عفرة سمينة
وناكة حمال الهموم هزال

هذه التجارب هي وليدة الصراع الطويل بسني العمر كله مع الحياة ، يمثلها الرجل الصبور الذي صهر معدنه الزمان وقاسى شظف العيش في خيمته بالصحراء وقطع فيافيها بجمه الصبور وهمته العالية فيقول المتنبي :

نعـد المشرفيـة والعوالـي
وتقتلنـا المنـون بـلا قتـال

ونرتبـط السوابق مقـربات
وما ينجين من خبب الليالي

وقولـه :

والهـم يختـرم الجسم نحافة
ويشيب ناصية الصبى ويهرم

لقد أخذ هذا الادب بالانقراض حتى في المناطق التي نشأ بها لعزوف سكان البادية والريف عنه في أغلب الاحيان و اخذهم بتيار المدينة وتركهم مناطق الصحراء تباعا .

واني لادعو الى احيائه بأزجاله الواردة فيه لان السيادة بأدبنا العربي وتراثنا الحضاري هي للغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم ، ودراستي له هنا تاريخية تراثية لواقع الصحراء العربية بمناسبة انعقاد الندوة الدولية لتاريخ مدينة الدير والفرات ، وكذلك للعاطفة التي امتزجت به ولم تنفصل عنه سواء أكان ذلك باللغة الفصحى أم باللغة الشعبية التي تريد النفوس والقلوب الكبيرة ان تعبر عنها بأساها وافراحها وامالها وكان الفراتي شاعر هذه المنطقة يقول :

اني احب بـلادي جـدعامرة
كما احب حداء العيسى منروحي

فالحر بالبيد ضوءالشمس يغمره
والعبد في القصر يعشو للمصابيح

ما فاح يوما شذى حريته ابـدا
الا من الرند والقيصوم والشيح

هذا الادب قديم ، منذ ان وجدت الصحراء العربية المتمثلة في صفاتها المذكورة ، وهو على بساطته يبرز تاريخا هاما من تاريخ بادية الفرات وواديه ومدينة الدير المتمثل بفيافيها وعشائرها وقراتها ما تعاقب الجديدان وكر الحدثان .

٥ ـ خاتمة :

ان انعقاد هذه الندوة الدولية لتاريخ الدير يذكر الشباب الناشيء والجيل الطامح المنحدر من البادية أو من المدينة أن يكون وفيا لقيمها العربية وتراثها الزاهر التالد المتمثل في الصفات العربية كالشجاعة والكرم والمروءة ونجدة الضعيف واغاثة الملهوف ، وغير ذلك فما قامت حضارة أمة الا على بنيانها وتراثها المتمثل في تاريخها وطباعها وماضيها .

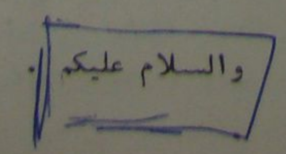
وبالاضافة الى هذه الصفات الانسانية العربية ففي وادي الفرات وبلاد ما بين النهرين مهد الثقافة الانسانية وموطن مدنيات زاهرة تعاقبت منذ فجر التاريخ وها هي الاكتشافات الاثرية الحديثة قد اثبتت ذلك وقال المؤرخ الالماني مومسن :

« ان اقدم قاعدة للمراقبة العلمية وتطبيقاتها العملية هي حوض الفرات فهنالك على ما يرجح شرع الانسان في مراقبة الكواكب وتتبع سيرها ، وهنالك تكلم اول ما تكلم ، وكتب اول ما كتب ، وفي تلك البقعة بدأ يفكر في الزمان والمكان وفي قوى الطبيعة العاملة والى وادي الفرات ترجع اولى ثمرات الفكر في علم الفلك والتاريخ اي ربط الحوادث بأزمانها والكتابة واستعمال المقاييس والاوزان » .

فاذا نسينا تراثنا وعزفنا واهملنا قيمنا العربية الاسلامية ، فاننا سنضيع ونفقد البنيان الباقي لنا من تاريخنا ، ونهدم أي أثر ترتكز عليه حضارتنا في ماضينا المجيد وتراثنا الزاهر ويتحقق قول العربي اوس بن حجر :

ورثنا المجد عـن آبـاء صدق
اسـأنا في ديارهـم الضيعـا

اذا الحسب الرفيـع تعاورته
بنـاة السوء اوشك ان يضيعا



المصـادر

١ ـ عشائر الشام للاستاذ وصفي زكريا جزءان ـ مطبعة دار الهلال بدمشق عام ١٩٤٥ .

٢ ـ الجزيرة السورية للاستاذ اسكندر داود مطبعة الترقي بدمشق عام ١٩٥٩ .

٣ ـ مجلة العمران (اصدار وزارة البلديات السورية) العدد الخاص عن دير الزور ٣٩ ـ ٤٠ لعام ١٩٧١ .

٤ ـ تاريخ ما اهمله تاريخ البادية العربية مقال للمحاضر في مجلة التراث لعام ١٩٨٢ العدد الثامن .

٥ ـ الادب الاجتماعي في شعر الفراتي والادب القومي والوصف والخيال ، ثلاث محاضرات للمحاضر نفسه في المراكز الثقافية العربية السورية بدير الزور وغيرها .

٦ ـ ديوان عبد الله الفاضل طبع دير الزور .

٧ ـ ديوان العتابا الجزء الاول طبع دير الزور .

★ ★ ★